هويدا سليم (السودان)

ختان الأنثى بين قبول المرأة وتأييد الرجل

للعنف بكل أشكاله، المعنوي والجسدي وبكل أنواعه، الأسري والاجتماعي والسياسي أثر سيئ في كل من يمارس ضده رجلا كان أو امرأة، طفلا أو كهلا . ولكن الانعكاسات السلبية للعنف تتضاعف إذا ما كان الممارس ضده فتاة في سن المراهقة . فالعنف الممارس ضدها في هذه المرحلة الحرجة من عمرها، يكون له أثر نفسي وجسدي قد يؤدي إلى تشكيل كل مستقبلها . وفي وطننا العربي، هناك أنواع عديدة من العنف الجسدي الذي يمارس يوميا على الفتيات المراهقات منها على سبيل المثال، الزواج المبكر والختان والتحرش الجنسي سواء كان هذا التحرش من قبل أفراد الأسرة أو من قبل الآخرين في فضاءات أخرى كالمواصلات والأماكن العامة . وفي هذا المقال، أحاول التعرض لأنواع هذا العنف الجسدي وأثره النفسي والاجتماعي في مستقبل المراهقة العربية . وسأتناول ذلك من الواقع السوداني، بحكم الانتماء، ليس إلا، بالتركيز على عادة الختان بوصفها أكثر وأوضح أنواع العنف الجسدي المقنن الممارس ضد المراهقات في السودان.

الختان كما هو معروف عند العرب هو إزالة النتوء الجلدي الذي يغطي رأس الذكر عند الرجل أو رأس البظر عند المرأة عن طريق عملية جراحية . وعادة ما تجرى هذه العملية على الفتيات في سن مبكرة، لهذا تكون العملية خطرة ومعقدة وقد تؤدي إلى الوفاة أحيانا. ذلك أن أعضاء الفتاة التناسيلة لا تكون قد اكتملت في تلك السن المبكرة. وعرفت المنظمة العالمية للصحة في 1997 ختان الإناث على أنه يشمل كل الأساليب التي تؤدي إلى الإزالة الجزئية أو الكلية للتركيبات التناسلية الخارجية للأنثى لأسباب ثقافية غير علاجية، واعتبرته عنفا جسديا ضد الفتاة غير مبرر قانونيا ولا شرعيا. وهناك العديد من أنواع الختان الموجودة حاليا بالسودان، بلغت 16 نوعا وفقا لتصنيفات بعض الباحثين. ويستعرض الأستاذ أحمد عبد المجيد، أحد الباحثين، ثلاثة أنواع من الختان الممارس في السودان. أولهما ختان بتر البظر والذي يسمى خطأ ختان السنة لإعطاء إيحاء بأنه يعود إلى الدين الإسلامي، في حين أن ختان الإناث لم يرد بالإفصاح أو التنويه في القران الكريم. وما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة جاء في أحاديث ضعيفة لا يمكن الاستدلال بها. وهذا النوع من الختان يتم في ثلاثة أشكال : قطع الجزء المتدلي من رأس البظر . وقطع الجزء المتدلى مع الجزء العلوي أو أكثر البظر. أما الشكل الثالث فيتمثل في قطع البظر كله وخياطة الجرح الناتج من جراء ذلك. وثانيهما الختان المتوسط والذي يعد درجة من درجات الختان الفرعوني، وفيه يتم قطع كامل للبظر والشفريين الصغيرين وقليل من الشفريين الكبيرين، ثم خياطة الجرح الناتج من جراء ذلك وترك ثقب صغير بحجم رأس عود الثقاب لمرور البول والطمث. وقد ظهر هذا النوع بالسودان عام 46 تحيلا على القانون بعد منع الختان الفرعوني. وثالثهما الختان الفرعوني وهو الأخطر، ويعد من أقسى وأبشع جرائم العنف الجسدي الممارس ضد الطفلة والفتاة المراهقة، وفيه يتم قطع كامل لكل أعضاء الفتاة التناسلية للقضاء على شهوتها الجنسية بغرض الحفاظ على شرفها حتى تتزوج. ونتيجة لهذه الممارسة الجسدية العنيفة، تحصل للفتاة مضاعفات صحية ونفسية خطيرة ليس وقتية فحسب، بل مستقبلية. فمن الآثار الصحية، نجد أنه غالبا ما يحدث للفتاة نزيف قد يؤدي إلى وفاتها في بعض الحالات في الحال. كما تصاب الفتاة بصدمة إكلينيكية خاصة إذا علمنا أن هذه العملية الجراحية القاسية، غالبا ما تتم بدون تخدير مما قد يؤدي إلى إصابتها بعقدة نفسية دائمة تجاه الجنس. ومن الآثار المستقبلية، غالبا ما تصاب المرأة بعسر الولادة، هذا إذا لم تصب بالعقم. كما يؤدي الختان إلى صعوبة معاشرة المرأة لزوجها بعد الزواج ويقلل من استمتاعها بالحياة الزوجية. ويضيف الباحث أحمد عبد المجيد أن هذه العملية قد تؤدي أيضا إلى انكماش الفتاة عن المشاركة في المجتمع.

ويؤكد د. سعد محمد الفاضل ،أستاذ أمراض النساء والتوليد بكلية الطب بجامعة الخرطوم، أن الطب أثبت أن عادة ختان الإناث هي نوع من العدوان الجسدي العنيف ضد الفتاة . وقال إنه، من ضمن الحالات المترددة على عيادات أطباء أمراض النساء والتوليد للفترة من (1981-1997) 71٪ أجريت لهن عملية الختان وتشكل ضمنهن نسبة المختونات فرعونيا(63٪) عانت (2،7٪) منهن من مضاعفات الختان، وقد تمثلت معاناتهن في عدم القدرة على المباشرة الجنسية عند الزواج(338) ضيق المدخل الشديد (228)، عدم الاستمتاع بالممارسة الجنسية (125)، الالتهابات المزمنة (63)، العقم (19)، جروح بالأعضاء التناسلية عند الممارسة(18)، النزيف المهبلي عند سن اليأس(8).

ونلاحظ أن هذه العملية الجراحية المعقدة كانت تقوم بها امرأة غير متخصصة في الطب أو أيا من المهن الصحية وبأدوات بدائية وبدون تخدير. ولكن حاليا تقوم بها القابلة بالقرية أو الطبيب قبل صدور قانون المجلس الطبي السوداني في آذار- مارس 2003 القاضي بمنع الأطباء من ممارسة الختان، وإلا تعرض لشطب اسمه من لائحة الأطباء بالسودان.

Picturing a life free of violence UNIFEM-M/MC

على الرغم من التقدم الذي أحرزته المرأة السودانية في كل المجالات باعتراف الجميع، وعلى الرغم من المحاربة المبكرة لعادة الختان بالسودان، فإن الإحصائيات مازالت تشير إلى ارتفاع حجم الظاهرة بصورة تجعل السودان في مقدمة الدول العربية والإفريقية التي تنتشر بها عادة الختان. فالسودان يساهم ب7٪ من المختونات في إفريقيا، حيث بلغت نسبة المختونات بالسودان 96٪ في 1978، و92٪ في 1983، و89٪ في 1990. ويحيل الباحثون عدم انخفاض نسبة الختان في السودان إلى تمسك الأسرة السودانية بها لإيمانها بأنها جزء من الدين أو العادة التي لا يمكن التخلي عنها. واتهمت بعض الأسر الذين يحاولون القضاء عليها بأنهم يريدون القضاء على التراث السوداني الأصيل واعتبرت فكرة القضاء على الختان غزوا ثقافيا غربيا دخيلا. وهذا الفهم ليس متأصلا لدى كبار السن فقط، وإنما لدى بعض النساء المتعلمات . كما نلاحظ أن الرجال أكثر تمسكا بعادة الختان، حيث قد تتعرض الفتاة غير المختونه لعدم الزواج أو التطليق في ليلتها الأولى إذا ما اكتشف الزوج أنها غير مختونة. وبعضهم قد يطلب منها الذهاب للقابلة لاجراء عملية الختان. وقد حدث هذا لعدد كبير من الفتيات مما يجعل الأم أكثر حرصا على ختان ابنتها خوفا ألاّ تتزوج. كما يشكل عدم الختان سبة اجتماعية في كثير من قرى السودان .

الختان : شرف الفتاة واستمتاع الزوج

إذا ما تساءلنا لماذا يمارس السودانيون عادة الختان للبنات على الرغم من علمهم بمدى الأذى الجسدي والنفسي الذي يسببه للفتاة أو ما هو مفهوم الأسرة السودانية للختان نجد أن مرجعيتهم في ذلك عرفية ودينية، حيث يعتقدون أن الختان جزء من الدين الإسلامي لذلك يطلقون علية (الطهارة) أي النظافة. وتقول في ذلك د. آمنة عبد الرحمن حسن من جمعية محاربة العادات الضارة في ورقة قدمتها للشبكة السودانية للقضاء على ختان الإناث، إن عادة الختان بالسودان والدول العربية والإفريقية لها دلائل طبية ووجهات نظر فقهية متضاربة ومؤشرات اقتصادية تتداخل فيها متغيرات ومضامين متعددة يصعب فصلها عن بعضها البعض. وهي أيضا ذات موروث ثقافي مما يجعل مسألة القضاء عليها عملية غاية في الصعوبة . وتعيد د. آمنة أسباب لجوء الشعوب لممارسة عادة الختان إلى عدد من الأسباب والمفاهيم الخاطئة، فهي عبارة عن طقوس قديمة تجرى لإلهة الخصوبة، هي، تهئية الفتاة للزواج، والحفاظ علي بكارة الفتاة، حماية الفتاة من الانحلال الأخلاقي ، والحفاظ على النظافة والطهارة، وتحسين الأداء لاستمتاع الزوج ، والاعتقاد بأن البظر ينمو ويصير مساويا لعضو الرجل، والاعتقاد بأن رأس المولود إذا لمس البظر عند الولادة يتعرض لإمراض وجروح قد تؤدي لوفاته. وفي السودان تحديدا، تعود الظاهرة إلى الحفاظ على بكارة الفتاة المراهقة وشرفها وذلك لاعتقادهم بأن عملية الختان تحد من رغبة المراهقة في ممارسة الجنس، وتكسبها المقدرة على كبت رغباتها الجنسية إلى حين الزواج الشرعي.

جدل في صفوف رجال الدين

انقسم رجال الدين بالسودان حول تحريم الختان حيث اعتبر معظمهم الختان عادة بربرية وحشية تمارس ضد الفتاة المراهقة وليس لها أي جذور أو أسس دينية، بينما ربطته أقلية منهم بالدين . ويقول علي هاشم السراج، أحد رجال الدين الرافضين لممارسة عادة الختان، إن الختان حرام بكل أشكاله (الفرعوني والسني) لأنه تشويه لخلق الله حيث هو تشويه للجهاز التناسلي للأنثى . ويترتب عليه فقهيّا الدية الكاملة لأنه قطع لأجزاء حساسة وهامة من جسد المرأة. وقد أكدت ذلك كل المذاهب الفقهية الاسلامية. وكما أكّد أن الذين قالوا بوجوب الختان للنساء استندوا إلى أربعة أحاديث هي (الختان سنة للرجال ومكرمة للنساء)، وحديث أم عطية (إذا خفضتي فاشمي ولا تنهكي)، (اذا التقى الختان وجب الغسل) و (الفطرة خمسة : الختان، الاستحداد، قص الشارب، تقليم الأظافر، ونتف الآباط). فالحديث الأول والثاني أحاديث ضعيفة الإسناد، لا يمكن الاعتماد عليها . وفي الحديث الثالث نوع من البلاغة حيث غلب الرجل على المرأة بحكم الغلبة مثل أن يقال الظهر أن أي (الظهر والعصر) فلا يعني هذا أن العصر يعني الظهر. وهكذا فالختان لا يعني بالضرورة أن تختتن المرأة، أما حديث الفطرة فأيضا لا يصح سندا على وجوب الختان للمرأة لورود أشياء أخرى فيه لا تتعلق بالمرأة مثل قص الشارب. هكذا ليس هناك سند ديني قاطع وواضح يستوجب ختان الفتاة ...

البقيّة ص 26

الختـــــان : اضطرابات جنسية بالجملة

يمثل الجرح النفسي والمعنوي شكلا من أشكال العنف أكبر من الجرح الجسدي. ولعل تعريف الختان في حدّ ذاته يبيّن مدى العنف الممارس حيث تجري للفتاة المراهقة عملية جراحية كبرى وبأدوات بدائية وبدون تخدير. وهذا يقودنا إلى تصور مدى المعاناة النفسية التي تعانيها الفتاة أثناء إجراء عملية الختان وبعدها . وهذا ما يؤكده لنا د. صلاح الدين محمد علـي هارون، استشاري الطب النفسي بمستشفى الأمراض النفسية والعصبية بالخرطوم الذي يعد الختان أحد انواع العنف النفسي الممارس ضد الفتاة، والذي يؤدي إلى تشوهات في نفسية الفتاة. ويقول إن العنف الصاحب لعملية الختان والمتمثل في تقييد الفتاة لعدم وجود المخدّر، يعرّض الفتاة أو الطفلة لاضطرابات نفسية حادة تتمثل في اضطرابات ما بعد الصدمة، حيث تشعر الفتاة أثناء نموها بنوبات من القلق والإحباط والعزلة الاجتماعية بسبب استرجاع عملية الختان بكل آلامها ونزيفها الدموي في شكل شريط سينمائي . كما يؤدي الختان إلى شعور الفتاة بفقدان الثقة في نفسها ويحمّلها أكثر من طاقتها في مسألة الحفاظ على شرف الأسرة مما يؤدي إلى "وسواس" قهري واضطرابات نفسية وجسمانية. لهذا تشعر الفتاة بالقلق لدى ممارسة أي نشاط له علاقة بهذه الأعضاء شرعيا، كان أم لا، مما يفقدها المتعة والإشباع بصورة قد تتسبب في عدم استقرارها النفسي في كل حياتها المستقبلية. كما قد يؤدي الختان إلى البرود الجنسي للمرأة. ويمكن القول إن الآثار النفسية للختان، لا تقتصر على المرأة فقط، بل تمتد إلى الرجل أيضا خاصة عندما يؤدي إلى عدم توافق جنسي بين المرأة وزوجها، مما يؤدي إلى شعور الزوج بالاضطرابات النفسية لعدم مقدرته علي إشباع رغبات زوجته. وما ينجر عن ذلك من مشاكل اجتماعية مثل الخيانة والطلاق وتعدد الزوجات . وتؤكد ذلك الدراسات النفسية التي أجريت بعيادة الدكتور النفسي "طه بعشر" سنة 1979 بالخرطوم، والتي أثبتت أن معظم النساء المترددات على العيادة قد أجريت لهن عملية الختان بأنماط متعددة . وأكدت الدراسة أن 91٪ من المبحوثات لديهن مشاكل في حياتهن الزوجية وأيد ذلك 74٪ من أزواجهن. وتشير الدراسة نفسها إلى أن 69٪ من التلميذات تأثرن بآلام عند الطمث بصورة أعاقت تحصيلهن الدراسي، كما أن 80٪ من العاملات تغيبن من العمل بسبب آلام الطمث مما أثر على ترقيتهن وفرصهن في التدريب الخارجي والداخلي.

محاربـــة الختـــان بدأت منـــذ العشرينـــات

يعتبر القانون أحد الوسائل الهامة في محاربة أي ظاهرة سلبية أو الحدّ منها. لهذا ظلت كل المنظمات النسوية التطوعية العاملة بالسودان الوطنية والأجنبية تنادي بسن قوانين رادعة لمن يمارس الختان بالسودان. وقد بدأت هذه المطالبة منذ عام 1924 ومازالت. ويؤكد ذلك القاضي محمد صديق محمد صالح، قائلا "إن جهود السودانيين بدأت منذ وقت مبكر في محاربة الختان بعد أن ثبت ضرره، مطالبين بإيجاد قانون يحمي الفتاة من هذا النوع العنف الجسدي الممارس ضدها". ولكن ذلك لم يثمر إلا متأخر جدا عندما صدرت المادة (كل من يسبب الأذى عمدا لأعضاء المرأة التناسلية الخارجية يرتكب جريمة الختان غير المشروع ما خلا الظرف المبين أدناه : "لا تعتبر إزالة الجزء المنفصل البارز من البظري جريمة إذا وافقت على ذلك المرأة أو ولي أمرها إذا كانت دون سن الرشد". "كل من يرتكب جريمة الختان غير المشروع ويعاقب بالحبس مدة يجوز أن تمتد إلى سبع سنوات ويكون عرضة للغرامة". ولكن هذه المادة لم تجد حظها من التطبيق وعند تعديل القانون السوداني في 1983، ألغيت هذه المادة. ومن ذلك الحين أصبح القانون السوداني خاليا من أي مادة مخصصة تحرم أو تجرم الختان. ولكن القانونيين يتعاملون معه في إطار المادة 272 من قانون العقوبات لسنة 1983 التي عرفت الجراح وقطع الأعضاء كما يلي : "يعتبر قطعا لعضو كل فعل أدى ويؤدي إلى إزالة أي عضو من أعضاء الجسم أو إلى تعطيله كليا أو جزئيا ...أو إزالة القدرة على الجماع... أو إزالة أي منفعة للبدن أو لعضو منه كليا أو جزئيا .

وقد نصت المادة 278 من نفس القانون على العقوبة و هي الدية الكاملة عن قطع عضو من الأعضاء الفردية بالجسم. وعند الإزالة الجزئية تقدر الدية حسب نسبة زوال المنفعة. وحيث أن الثابت طبيا أن العضو الجنسي الخارجي للمرأة، يتكون من ثلاثة أعضاء أحدها فردي وهو البظر واثنين زوجين وهما الانثيين والانثيين الصغيرين، فإن إزالتها أو إزالة أي منها يعاقب عليه بالدية حسب ما هو منصوص عليه. ولكن المشكلة أن القانون جعل الختان جريمة في الحق الخاص، وبالتالي لا يجوز أن تتخذ فيها اجراءات إلا ممن وقعت عليه الجريمة أو ولي أمره إذا لم يكن راشدا. وهكذا يصبح غير ذي جدوى لأن الجريمة (الختان) تقع أساسا علي الفتاة برضى أولي أمرها، وبالتالي لا يمكن أن تشكي الفتاة أمها أو أباها . وهكذا لم يعد القانون فعالا ومجديا مما يتطلب إصدار قانون جديد يحرم الختان نهائيا ولا يترك ثغرات ينفذ منها من أراد ممارسة الختان.

لماذا تصر المـــرأة السودانية إذن على ممارسة الختان؟ بدليل ارتفاع نسبة الختان ليس في الريف فحســب، بل في العاصمة، حيث تشير الإحصائيات أن النسبة في العاصمة بلغت 91٪ بينما في الأقاليم 89٪. يقول د. عبد الهادي إبراهيم، أخصائي أمراض النساء والتوليد وطب الأسرة، إن النساء يتمسكن بهذه العـــادة نتيجـــة للجهل بمـــدى تأثيـــر عملية الختان على قدرة المرأة في الاستمتـــاع بحياتها الزوجية، موضحـــا أن هذا الجهـــل ناتج من آلام لأنها ختنت، فهي لا تعرف ما هي المتعـــة الجنسيـــة التي تتمتع بها المرأة غير المختونة. لهـــذا تعتقد أن المتعة هي تلك التي تعيشها هي ولا تدرك وجود مستويات أعلى منهـــا يمكن الوصـــول إليها إذا لم تتم لها عملية الختان . كما يعتقد أيضا بعض الآباء خطأ أن الختان يشكل حزاما لعفة الفتاة ويقلل من رغبتها . ولكن هذا خطأ لأن الرغبة موجودة بالمخ وليس لها علاقة بالأعضاء التناسلية. ولهذا عندما تقطع الأجزاء التناسلية تظل الرغبة موجودة وإذا لم يتم التنفيس عنها، أدت إلى شعور الزوجة بالإحباط، وهكذا يعد الختان تشويها جسديا ونفسيا للفتاة المراهقـــة قـــد يـــؤدي إلى تدمير مستقبلـــها .